بَيْتُ العَائِلَةِ

2

رسوم:
د. صفا لطفي

بَيْتُ العَائِلَةِ

كُنا في رحلة طويلة، قضينا فيها خمس سنوات بالإسكندرية، في مدينة العامرية، حيث نقوم بزراعة الأرض الجديدة التي اشتراها والدي واستصلحها، وكان والدي قد باع كل أملاكه في القرية، وذلك حتى يستطيع الإنفاق على المزرعة الجديدة، ولأننا أقمنا هناك إقامة كاملة، وقمنا بتحويل أوراقنا إلى المدارس الموجودة هناك ، ولكن انتابنا الحنين إلى أسرتنا وإلى قريتنا ؛ الذي ساعدنا أكثر أننا علمنا أن جدي الآن في مرضه الأخير، وأنه طلب من والدي أن يكون بجواره هذه الأيام.

شعر والدي بالحزن لأنه كان بعيدًا عن جدي هذه الفترة الطويلة، وكان جدي يقيم في منزل العائلة، وكان منزلاً كبيرًا، تركه له والده بعد موته، تربى فيه أبناء العائلة منذ عدة أجيال .

وجئنا على الفور لزيارة جدي، وقام والدي ببيع كل ممتلكاته باستثناء قطعة أرض زراعية، فقام باستئجارها هناك؛ لأنه قرر العيش في بيت العائلة، ولكي يكون بجوار جدي في أيامه الأخيرة.

ولم يمر شهر حتى توفي جدي، وعمَّ الحزن علينا جميعًا، فقد كان جدي عزيزًا علينا كلنا . كان جدي رجلاً صالحًا، وكان مواظبًا علي إقامة الصلاة دائمًا في مواعيدها، وعلى البر بالفقراء والمساكين •• وبعد أسبوع من وفاة جدي وجدنا هناك اختلافًا كبيرًا بين أعمامي الثلاثة وعمتي، وبين والدي علي توزيع الميراث، وكان الميراث هو مساحة كبيرة من الأرض الزراعية وبيت العائلة، ولما وجد والدي أن هناك تنازعًا كبيرًا هكذا آثر هو أن يكون نصيبه في الميراث هو بيت العائلة،

وذلك لأنه يريد أن يحتفظ به تخليدًا لاسم والده، وكذكرى له حتى يتذكره به دائمًا، ولأنه أصبح أثرًا يخلد ذكرى العائلة ،وتنازل عن نصيبه في الأرض الزراعية لإخوته، وفرح الباقون بنصيبهم من الميراث، الذي كان أكثر حظًّا من نصيب والدي، ولم تمر شهور حتى قاموا جميعًا ببيع نصيبهم من الميراث، وهو عبارة عن أراضٍ زراعية، بحجة أنهم لا يحبون العمل بالزراعة.

و للأسف قام كل واحد منهم بإنفاق المال سريعًا دون الاستفادة منه في مشروعٍ أو شيء مفيد

دون أن يُعلم الآخر بما فعل باعتبار أن المال ملكه، وهو صاحب الحق في التصرف فيه وحده.

وأقمنا نحن في منزل العائلة . ولم يبق لنا في البيت القديم شيء

ولكن مع كل هذا فالبيت كبير، ويكفي خمسة أسر بأكملها لكي تقيم فيه.

والغريب أن أحد أعمامي بعد كل هذا أُصيب بمرض شديد، واحتاج إلى أموال باهظة للإنفاق عليه، وكان الأمر شديداً ، فقد باع عمي كل ما لديه من أموال للإنفاق على مرضه، ولم يعد عنده ما يكفيه حتى نصيبه من ميراث جدي ضاع هو الآخر على العلاج، وقام والدي بمساعدته بمبلغ كبير ولكنه لم يكف .

ومع ذلك لم يساعده أحد من أعمامي الآخرين أو عمتي التي أخذت نصيبها من ميراث جدي ..

بَيْتُ العَائِلَةِ

كان عمي حزينًا جدًّا من عدم اهتمام أحد به في هذه الظروف القاسية، ومع ذلك فقد أصبحنا في غاية الضيق مما حدث لعمي، ونريد أن نساعده ولكن ليس أمامنا إلا أرض العامرية التي أصبحت مصدر رزقنا الوحيد ، التي استصلحناها بعرقنا وسهرنا الطويل، ولم يجد والدي بعد أن يئس من الحصول على أي مال إلا أن يفكر في بيع الأرض، ولكن بعض الناس قال له عليك ببيع بيت العائلة فالبيت كبير، وحوله مساحة من الأرض الخالية، وسوف تحصل منه على مبلغ كبير، وعد لأرضك كما كنت، فهي مصدر رزقك .

وكأن شيئًا لم يحدث ، ولكن والدي كان مُصرًّا على عدم بيعه مهما حدث، والغريب أنه ظل على هذه الحال أيامًا طويلة .

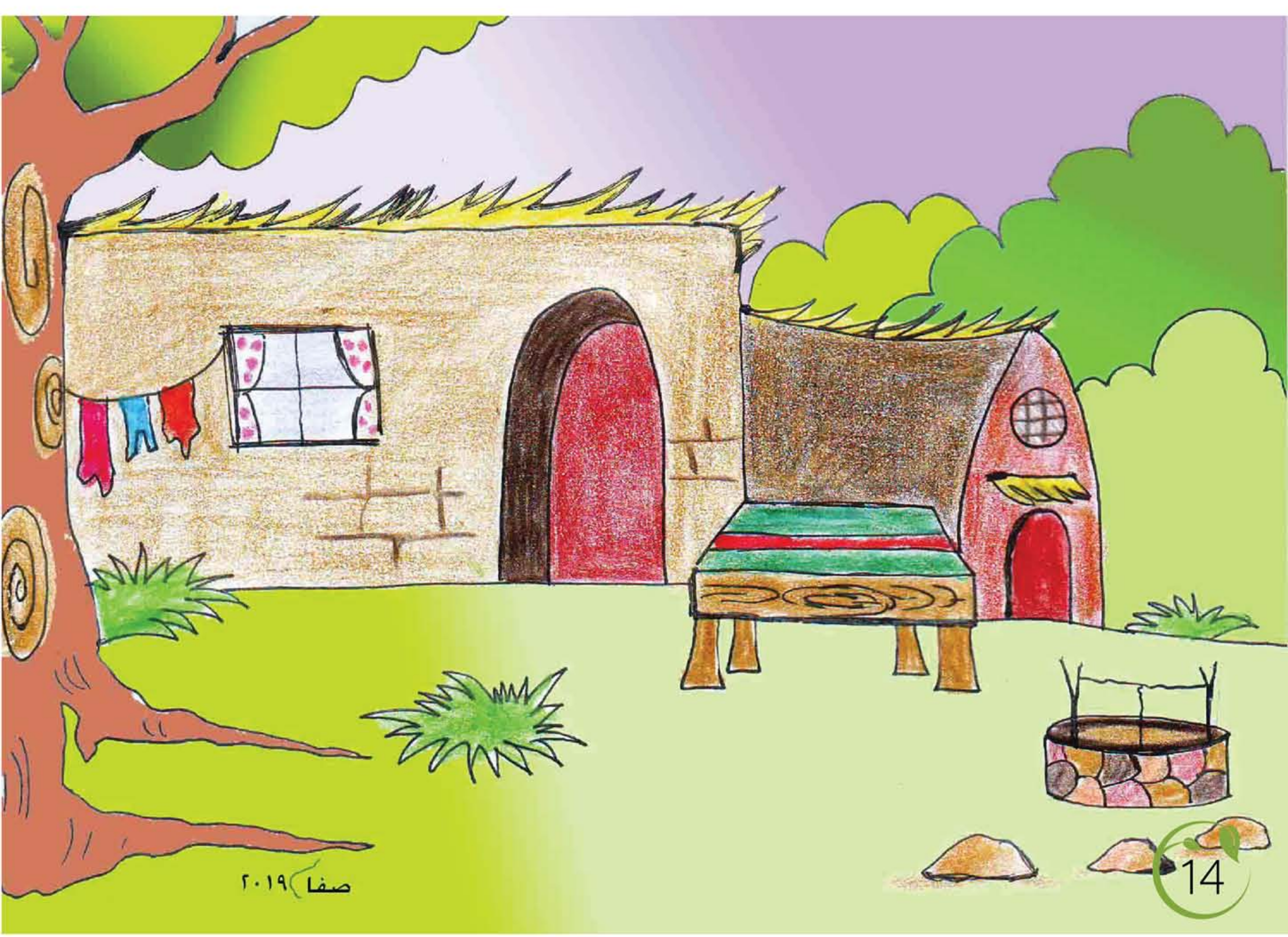

بَيْتُ العَائِلَةِ

جلستُ ذات يوم وأنا في غاية الضيق مما حدث لوالدي، وأنا مستند إلى شجرة الزيتون المباركة، التي زرعها جدي ، الذي كان يحب دائمًا الاستناد إليها، وأنا في غاية الضيق من حال والدي وموقفه، ولم تمر لحظات حتى أخذتني سِنَةٌ من نوم، ووجدت جدي في المنام يأتي من بعيد، وكان حزينًا، فقلت له: لماذا أنت حزين يا جدي؟ فقال لأنني أعرف أن عمك مريض ولا يوجد معه مال للعلاج. قلت ولماذا لم تنقذنا يا جدي؟ قال لي: سوف أقوم بإنقاذكم إني أعرف مكان كنز كبير كان قد وضعه رجل من قديم الزمان في مكان ما ثم مات ولم يعلم أحد به قبل ذلك. قلت له على الفور: وأين هو؟ قال لي ستتعجب حينما تعلم مكانه، إنه أسفل الشجرة التي تجلس بجوارها •• ظللت أنظر إليه وأنا في غاية الدهشة وهو يكرر الكلام ولكنني لم أعد أسمعه ثم انصرف •• ظللت أنادي عليه، ولكنه لم يرد عليَّ، قمت مفزوعًا من نومي، ولكنني سرعان ما تذكرت أن عليَّ واجبات دراسية كبيرة، فنسيت ما رأيت •• وأثناء عودتي في الطريق، تذكرت ما حدث، ولكنني قلت: إنها أضغاث أحلام، ويجب أن لا أهتم بهذه الأمور التافهة، وبعد أن عدت إلى المنزل وبدأت في المذاكرة، ظل الأمر يلح عليَّ، ولكنني قلت: لماذا لا أقول لوالدي؟

وعلى الفور أعلمت والدي بما حدث، فقال: الأمر بسيط يا بني، لماذا لا نجرب لن نخسر شيئًا .

هل سنخسر شيئًا من التجربة ؟ الشجرة بجوار المنزل، وسوف يعود كل شيء إلى موضعه، وحملنا الفأس، واتجهنا إلى شجرة الزيتون؟

وظللنا نحفر حول الشجرة كلها، ولم نجد شيئًا حتى ملَّ والدي، وهنا قال :

لعل حلمك هذا كان وهمًا، علينا أن نعود إلى المنزل فلا وقت لدينا ؛ لذلك قلت:

يا والدي تمهل قليلاً، ثم نحاول ثانية ، وبمجرد أن ضرب بالفأس حتى ارتطم الفأس بصندوق حديدي، وهنا فرح والدي جدًّا، وتأكدنا أنه هو وقمنا بإخراج الصندوق ، الذي كان كبيرًا ، وقد أصابه الصدأ، وكان مُحكم الغلق، ووجدنا بداخله صندوقًا آخر أكثر بريقًا ولمعانًا، وكان هذا الصندوق من الفضة، ولهذا لم يصدأ مع وجوده في مكان مليء بالرطوبة ، وإن لم تمسه المياه، فقد حماه الصندوق الخارجي الذي أصبح كامل التلف من الخارج، وجدنا كنزًا كبيرًا من المجوهرات الثمينة ، قد جاء إلينا منحة من الله، وقام والدي بالإنفاق على عمي حتى تحسنت حالته.

والغريب أنه بعد شفاء عمي وسلامته من المرض، قام أحد اللصوص والمحتالي ن بخداع عمي الآخر ، ونهب كل ثروته ولم يعد عنده مكان يقيم فيه، فقد وقَّع على عقد بيع له بكل ثروته، أصبحت حالة عمي يرثى لها، وجاء يبكي إلى والدي، ويطلب منه أن يقيم معنا في بيت العائلة ، وهو يتوسل له وما كان من والدي، إلا أن رحَّب به أشد الترحيب، وقال: هذا بيتك، وهو مدخر لك.

أثر هذا الموقف تأثيرًا كبيرًا في كل أعمامي ، وجاءوا لوالدي وهم في غاية الأسف، وقالوا له: لقد ندمنا على ما فعلنا، ونطلب منك أن نعود إلى بيتنا الكبير ، وأن نقيم معك في بيتك ·

وهنا فرح والدي فرحًا شديدًا بعودة الأسرة الكبيرة إلى مكانها الأصلي، ولكن والدي قال لهم: البيت بيتكم وقد عدتم إليه، يجب أن نبدأ صفحة جديدة ، وتعاون الجميع في زراعة الأرض الباقية، وأصبح المال مال الجميع ،ولم يشتك أحد من يومها وسط العائلة من أي شيء.

أما نحن فقد سعدنا كثيرا بهذا الجو العائلي الذي كنا نتمناه كثيرًا.

أما أرض العامرية فقد كان والدي يُشرف عليها، ولكنه لم يفكر يومًا ما في بيعها ، أو حتى ترك بيت العائلة، قائلاً: لا يوجد شيء يغني عن الحياة في بيت العائلة حتى ولو كانت ثروةً طائلة.